جذور الحياة

قصة

بقلم عائشة ارناؤوط

كان السلم الذى أصعده طويلا جدا، ويدى المعروقة تتزحلق ببطء على الدرابزين العتيق المنخور ..

اننى تعبة رغم الحياة الجديدة التى تعترينى ، رغم الشعور الخفى الذى يتمزق فى أعماقى مانحا النبع الفنى لحياتى الشعور الذى يقول بأن ابنتى ستعود .. ستعود يوما ما ..

يترامى الى من بعيد ، من خلال الأبواب الكبيرة المغلقة فى هذا البيت الموحش صوت «لانا» ضاحكة مع المربية، ولا أستطيع ازاء هذا الشىء الا أن أرسم ابتسامة ما .. بالوان قاتمة ، هذه الابتسامة كنت أقابل بها ضحك لانا دوما .. وكانت تكلفنى الكثير ..

أواه يا حفيدتى الصغيرة ، لم يبق لك سواى ، ولم أبق الا لك ، كلهم رحلوا تاركين فى أعماق هذا البيت الأسود العتيق .. ربيعا وشتاء ..

وصلت الى المنحنى .. حيث الباب الكبير ، وتدفقت أصابعى من جيبى الى المقبض .. وأدرته ، الوجه الصغير الأبيض ، والشعر النابع من قلب الشمس ، والعينان البنفسجيتان . كل هذه الأشياء تتصلب أمام عينى بمجرد دخولى .. طارت لانا الى أحضانى ، وهى تتمرغ بثيابى التى تحمل رائحة البرد الجافة .. وعانقتها أشباح حلمى .. ، وبللها مطر شتائى الذى يفنى تاركا الربيع يدوس جثته فى النهاية ..

دون ارادة ، كنت أحس أننى أريد أن أكون وحدى لفترة ما .. نظرت الى المربية كانت تفهم كل ما أريد أن أقوله لها من نظراتى .. وبهدوء عجيب وصمت أرعبنى توجهت نحو لانا وقالت لها:

ـ تعالى ياحبيبتى .. فقد حان وقت النوم ..

رفضت لانا بادىء الأمر هذا الشىء ، كانت تريد الجلوس فى حضنى أمام الموقد الكبير المشتعل .. كانت تريد أن أقص عليها الحكايات عن أمها الراحلة التى ستعود يوما ما .. سيضعها طائر أبيض كبير على السطح وستهبط الينا حاملة ياسمين السماء الفضى ، أو ستنزل من سيارة سوداء مجهولة فى المنعطف القريب من الدار وستصعد الى البيت الكبير مجتازة الحديقة التى لم يعد يعتنى بها أحد .. بعد موتها

كنت أحس تماما بأن هذه الأشياء

وحدها تعتمل فى صدرها من طريقة انتصابها الجامد وسط الغرفة ..

نظرت اليها .. وقلت لها ببرود « ليلة سعيدة .. » وأدرت ظهرى .. وأخيرا .. لم تجد بدا من أن تمد يدها للمربية وتخرج دون أن تقبلنى قبلة المساء ..

البيت الكبير غارق فى غابة من الصمت ،والنيران انطفأت ومات لهيبها فى حنجرة الموقد السوداء ولأول مرة توجهت نحو غرفة ابنتى الملاصقة لغرفتى ، ولأول مرة .. أجرؤ على فتح بابها منذ قتلت بظروف غامضة .

كان للباب أزيز حاد هزنى .. وما أن فتحته على مصراعيه حتى انسابت الى أنفى رائحة العفن الرطب ، تعانق رائحة عهد قديم منسى ينبع من حضنه ذكريات ..

دخلت ، كان كل ما حولى تنسجه عناكب الظلام بصمت ، وبيد مرتجفة أشعلت الشمعتين ، كل ما فى الغرفة ميت .. وحزين .. وأسود ..

سريرها وقد علته طبقة من الغبار.. الأرض وعليها بضع نقاط من الدم الأسود.. والحاكى.. وبضع اسطوانات .. والموقد والرماد، والسقف الذى صار ماوى للعناكب ، وصرير السوس الذى يقرض الخشب يمزق السكون الرهيب بنعومة خافتة ..

كانت عيناى تتلقفان كل ذلك ، وتجترآن اليأس المرير القاتل ، ستأتى اليوم .. ! وسقطا قدماها أرض هذه الغرفة .. أجل .. انها ستأتى وها أنا أنتظرها ..

اقتربت من نقاط الدم ، وانحنيت.. مفكرة بشكل لا ارادى .. وارتسم وجهها الأسمر .. يبتسم .. عابقا برائحة الشمس المحترقة .. ويتكلم :

ـ أتذكرين شجرة الحور التى اقتطعها زوجى قبل أسبوعين ياأماه ..!

ـ أجل ..

ـ لقد لا حظت اليوم .. وانا أنظف الحديقة أن عدة أغصان صغيرة تنبت من بقايا الجذع ، لقد هزنى منظرها ، وشعرت بأن شيئا غريبا يمكن أن يحدث فى هذا العالم مادامت الارادة .

أنها الجذور التى تربط كل شىء بالحياة ..

كنت منحنية يمر أمامى كل شىء ويكرر مرة أخرى مختلطا مع النقاط الدموية وفجأة تحول وجهها الأسمر الباسم .. الى وجه شاحب يبكى .. لقد مات زوجها ، التهمته عجلات سيارة مجهولة سوداء .. وبقينا وحدنا نحن الثلاثة بعده .. ، أنا ولانا .. وهى .

رائعة كانت رغبتها بالحياة .. ولا أزال أذكر سهراتنا كلها واحدة فواحدة .. على ضوء القمر فى الحديقة .. فى جبين الصيف ، أما فى الشتاء ،فقد كانت الغرفة المغلقة تضمنا ، والنوافذ تخبئناعن أعين الليل وشروره لاأزال أذكر الموقد المشتعل ... وبخار الشاى المتصاعد من الأقداح ، كانت رائعة .. وكنت أحبها ، أحب التصميم المرتسم فى عينيها ، والشموخ المعشش فى جبينها ، كانت جبارة وعنيدة .. عندما تتدخل ارادتها فى شىء .. فياويل السدود ..

كانت تحب الحياة بشكل عنيف لأنها تريد أن تبنى لابنتها لانا .. حياة زاخرة بالسعادة .. فكل الخيوط التى تربطها بالعالم .. تمر من المحور «لانا» التى لم تكن قد تجاوزت آنذاك السنة والنصف من العمر ..

كانت تريد أن تعيش لأجلها .. ولاتزال كلماتها ولايزال صوتها ينساب كأنه نابع من فمها فى هذه اللحظة الصامتة ..

ـ أريد أن اعيش لها أن أشعرها بأنها لم تحرم من الأب قط ، أريد أن أعطيها حنانين .. وحبين وقلبين .

كانت قوية الثقة بنفسها لاتريد من أحد أن يساعدنا فى أعمالنا .. فمنذ الصباح الباكر تغسل الجواد ، وتعتنى بزهور الحديقة ،وتنظف الممرات وتطبخ ، كانت كل شىء فى دارنا الكبيرة ، كانت الرجل .. وكانت المرأة .. ان حبها للحياة أعطاها هذه القوة الهائلة السحرية .. والآن .. الحصان هزيل .. يرعى الحشائش الطفيلية النابتة .. والزهور .. لاتزال هناك متلاحمة بيأس مع الشوك .. تنتظر يدا تقطعها وتحملها الى البيت ..

لكن كل هذه الآمال ستبقى آمالا ميتة .. والحصان لن يطعمه أحد والحديقة ستظل نهب الأشواك والحشائش التى ستبتلع الزهور يوما ما .. والممرات ستظل مملوءة باوراق الأشجار الجافة ... والقبر .. الذى يحتم موت الأمل .. القبر الصغير .. فى الحديقة .. الذى ضمها منذ سنتين ضم أملها .. وارادتها .. ونبذ حياتها .. لقد ماتت مقتولة هنا فى هذه الغرفة بخنجر قديم صدىء ، وكانت ميتة بشعة وعنيفة ، ولم تكن تحب ميتة كهذه .. كانت تقول « ان الميتة الحلوة .. هى التى تكون بانين.. برفة هدب .. وينتهى كل شىء » لكنها ماتت بعنف وفى الظلام ولم يعرف القاتل .. ولم تعرف الأسباب .. كانت مؤامرة مجهولة لم تنسج الا لقطع الخيوط الحلوة .. وفى هذا البيت الرائع ..

ورفضت بادىء الأمر أن أصدق أنها ماتت ، ان هذه الشعلة من الحركة والحياة قد انطفأت الى الأبد .. خطفتها أذرع مجهولة ، كنت أرفض أن أصدق ولا أزال أومن بأنها ستعود .. ستعود ..فانسانة كهذه لا تستحق أن تموت..

كان الصمت يتلولب مع خطوط ضوء الشمعتين المتكسرة .. ورجعت صورة القبر الى رأسى .. وبدأت أشعر أن ثمة خطوات تمشى على السلم الخارجى .. وسمعت صرخات خافتة متتالية .. ممزوجة بصوتها الرنان الحزين .. ورجعت كلماتها تدوى فى أذنى ..

ـ وشعرت بأن شيئا غريبا يا أماه يمكن أن يحدث فى هذا العالم مادامت هناك ارادة الانسان .. وها هى ذى ارادتى تتحرك الآن وتسيرنى ... انها الجذور التى تربط الانسان بالحياة .. تربط كل شىء بالحياة ..

ـ عندما يفكر الانسان بالحياة لاتستطيع أية رياح أن تقتلع جذوره المغروسة فى أرضها ..

ورجعت صورة القبر .. مشوهة بشعة . ورجعت صراخاتها العنيفة التى

تعلو .. وصوتها الرنان الحاد .. المملوء بالرعب، أثناء ذلك شعرت بأنها تتخبط حية داخل القبر تحركها الارادة القوية .. ولم أتمالك نفسى .. ركضت الى النافذة وفتحتها لأرى القبر ..

وكان هناك .. معجون بالليل والصمت .. وفجأة رأيت ذراعين تنبتان من طرفه وسمعت صوتا خافتا مجهدا .

أغلقت النافذة بخوف .. ورميت وجهى على ذراعى المسكتين بمقبضيها ، وعاد لحن الصمت عنيفا وصاخبا .. ورجعت الخطوات خارج الغرفة تدوى .. وتقترب .. ثم ... وفجأة .. فتح الباب . .وانتصبت بشموخها وعنف أرادتها أمامى .. كانت يدها ممسكة بباقة زهور .. وكانت تلبس ثيابا غريبة رمادية .. دخلت بهدوء وهى تبتسم .. وتكلمنى .. كان صوتها رائعا حزينا كما عهدته ، لكننى أشعر الآن أنه يأتينى من أعماق سحيقة وبعيدة ، من جزيرة نائية وسط بحر مجهول .. ألم أقل انها لم تمت .. ؟.. وهاهى ذى قد عادت كما كنت أنتظر ..

ـ هل نامت لانا يا أمى .. ؟

ـ أجل ياعزيزتى ..

ـ ان رائحة الغرفة عجيبة أليس كذلك ؟؟ لم أشتم رائحة العفن الا فى القبر ..

ـ لم يسكنها أحد بعدك ..

ـ ولن يسكنها أحد ..

توجهت نحو وعاء الزهور وتناولته.

ـ سأذهب لأملأه ماء ..

وذهبت .. كان كل شىء يجرى كالحلم أمام عينى .. ولكننى فى هذه اللحظة بالذات شعرت بأننى أفقد شيئا غاليا .. وأكسب شيئا آخر .. أعتز به .. شعرت بأن كل شىء يمكن أن يحدث فى هذا العالم .. ورجعت الى صورة شجرة الحور المقطوعة .. والاغصان النابتة من بقايا الجذع ..

دخلت حاملة وعاء الزهور.. وضعته فى مكانه وأخذت تنسق فيه باقتها .

ـ أتسقون زهور الحديقة كل يوم ؟

ـ أواه يا ابنتى .. لم نعد نعتنى بالحديقة ، لقد تهدمت واقتربت من النهاية كما ترين ..

نظرت الى بعتاب ثم توجهت نحو النافذة وفتحتها ، اقتربت منها قائلة لها :

ـ أنت تعبة أليس كذلك ؟؟

ـ لا .. أبدا .. لقد جئت لزيارتك .. كيف لانا يا أماه ؟ لقد اشتقت لها كثيرا حدثينى عنها .

كانت تنظر الى الفضاء المسحوق مع الليل ، وكان فى عينيها لمعان غريب ، لم أعتد رؤيته أبدا .. لمعان عالم آخر ..

وبعد لحظة من الصمت تابعت دون أن تنتظر الجواب .. وقد غيرت الموضوع كليا ..

ـ لن تحتاجوا لهذا القبر بعد اليوم يا أماه .

ـ لماذا يا ابنتى .. انه قبرك ..

ـ كان حتى اليوم .. قبرى .. ولكن الآن .. لم أعد فيه .. جئت

لأودعك ولأقبل « لانا » ثم أرحل ..

ـ الى أين ..؟

ـ سأمتطى جوادنا الهزيل .. وارحل ..

ـ حسنا ولكن .. ألن تأكلى ..؟ صنعت البارحة بعض الفطائر نظرت الى ضاحكة .. وقالت :

ـ الأموات لا يأكلون .. يا أماه ..

أغلقت النافذة .. ومشت تذرع الغرفة ، كانت رائحة ثيابها عجيبة جدا .. وهناك . .وقفت فى نهاية الغرفة .. واستدارت نحوى قائلة :

ـ لنذهب الى غرفة لانا ..

تبعتها بصمت .. كنت هادئة .. ربما لأننى عجزت عن فهم ما يدور حولى . ولكن صورة الاغصان وبقايا الساق .. لا تزال ماثلة أمام عينى ..

دخلنا غرفة الطفلة .. التى كانت نائمة واقترب شبح الأم من السرير ونظرت اليها بحنان .. وعلى الضوء الخافت كنت أستطيع أن أتبين شفتيها

المغبرتين ، ووجهها الشاحب الذي يقترب من وجه الطفلة والتصقت قبلة ما ·· على الجبين الناصع ··

بعد قليل ·· استدارت نحوى ·· وتأملتنى مليا بعينيها الحادتين ··· وهمهمت ··

ـ الوداع يا أماه ··

ـ الى أين ؟·

ـ حيث يسوقوننى ·

ـ من هم ؟

ـ رعاة القطيع البشرى ··

ـ الوداع اذن ·· سأنتظرك ·· هل ستعودين مرة أخرى ؟·

ـ ربما ولكن لن أعود الا مع الليل··

وفتحت الباب ·· وذهبت ·· كانت خطواتها تختنق كلما ابتعدت وشعرت بأنه يجب ألا أتركها تذهب ·· اسرعت ··· لكننى لم أجد أحدا ·· كانت ثمة رياح خافتة الصوت تهمهم وأنة ماتت بعد لحظة من بعيد ··

أواه ـ لقد فقدت كل ما أملك ·· بى رغبة لأن أفعل شيئا ما ··· أقتل انسانا ·· أكسر نافذة ·· أخنق نفسى ·· وانفجرت بالبكاء ·· كان الشىء الوحيد الذى يمكن أن أفعله فى هذه الليلة ·· لم أعد أستطيع أن أفكر ، عجزت عن ادراك أى شىء ، لم أعد أفهم : ها هى ذى المربية تدخل ··

ـ آه يا سيدتى ·· لم دخلت هذه الغرفة ؟ ما بك ؟

وأجبتها وأنا أنشج ·

ـ لانا ·· أحضريها الآن ·

ـ انها نائمة !

ـ أريدها بسرعة ··

ولم تمض دقيقتان حتى كانت تحملها بين ذراعيها ·· وترميها فى حضنى ·· وتنحنى بخوف أمام قدمى ·· نظرت الى لانا ·· قائلة لها :

ـ لانا ·· هل أحسست بقبلة أمك ··كانت شفتاها مغبرتين عندما لامست جبينك ، لقدرحلت ممتطية الجواد الهزيل وقالت انها سترجع فى يوم ما ·· مع الليل ·· فلننتظرها يا لانا ·· طوال الليل ·· ولننم النهار بكامله ·

كانت لانا خلال كلماتى تغفو ·· لكننى أسارع وأرفع رأسها بأصابعى

ـ ها هى ذى الزهور التى قطفتها لك من الحديقة ··

واستدرت الى المربية قائلة :

ـ احضرى الزهور ·

وتملكنى العجب ·· كانت المربية ترتجف بخوف أمامى · ·وصرخت بها مرة أخرى بعنف ··

ـ أحضرى الزهور ·

وانفجرت الطفلة بالبكاء ·· وتمتمت المربية ·

ـ أية زهور يا سيدتى ··

ـ الزهور الموضوعة فى وعائها ··

ـ ان الوعاء فارغ ·· ولا شىء فيه··

ـ الزهور التى أحضرتها أمها ـ أم الطفلة ـ ·

ـ أمها ··!؟ أمها ميتة يا سيدتى ·!

ـ ميتة ؟· آه ·· أعرف ذلك ··

لكنها جاءت هذه الليلة وقبلت لانا ..
ألا ترين غبار شفتيها على جبين الطفلة .. غبار القبر ..

ـ لا غبار البتة على جبينها .

ـ والحصان الهزيل أيتها الحمقاء ، لم يعد فى حديقتنا ، لقد امتطته وذهبت قائلة انهاستعود يوما ما .. مع الليل.

باغتتنى المربية وارتمت على منتزعة الطفلة من أحضانى .. وابتعدت بها وهى تقول ..

ـ لا تلمسى الطفلة لقد جننت .!!
الأموات لا يعودون ، الأموات لايعودون، الأموات لا يعودون ..

وكررت كلماتها الأخيرة بحدة وعنف فصرخت بها ..

ـ كفى انها لم تمت بالنسبة لى ..

ـ ما هى ذى نقاط الدم على الارض تعرى الحقيقة ، انظرى ولا تخافى .. نقاط دمها العتيق ..

ـ لقد عادت أيتها الحمقاء . وها هى ذى الزهور موضوعة هناك ..

ـ ان عينيك تشاهدان زهورا لاوجود لها ..

ـ أنت تكذبين .. ها هى ذى هناك.

وخفضت رأسى متمتمة .

ـ آه لماذا لا تصدقوننى .. لقد عادت .. لقد عادت .

وأجابتنى المربية بهدوء :

ـ حسنا سيدتى .. لقد عادت لكن أرجوك لا تلمسى الطفلة الآن وغدا سنعرف كل شىء ..

ـ دعى الطفلة معى .. سننتظر أمها حتى الصباح ..

ـ انها طفلة ... ولا تتحمل ذلك ..

نهضت من المقعد وتوجهت نحو «لانا» قائلة لها بهدوء وحنان ..

ـ لانا .. ألا تريدين أمك ؟ لقد عادت .

ـ أجل يا جدتى .. أريدها ... ولكن أين هى ؟.. أهذه هى غرفتها أين هى ؟.. أريدها .. أريدها ..
وركضت نحوى لكن يد المربية كانت أسرع منها ، فقبضت على كتفها وأوقفتها قبل أن تصل الى أحضانى ..

ـ ان أمك ميتة يا لانا .. ولن تعود أبدا ..

ـ ميتة ... آه .. انى أخاف الأموات ..

وأخذت تبكى وتردد .

ـ لا أريد أن أراها .. انها ميتة .. وليست أمى ..

واليوم .. ها أنا ذى انتظر ، لقد مضى على زيارتها الأولى أسبوعان انتظرها فى غرفتها فاتحة النافذة على مصراعيها ، ناظرة الى الحديقة والى الممر .. مصغية طوال الليل الى خطوات ستمشى على السلم ..

وموت الحصان الهزيل قبل أسبوعين بالذات .. ورفض الجميع .. وشكهم فى .. وخوفهم منى.. كل هذه الاشياء تمر أمام عينى.. وأعجز عن ادراكها..
لقد أبعدوا الطفلة عنى.. فلم أعد أراها أبدا .. وهذا هو الشىء الاخير الذى لم أعد أفهمه أيضا ..